المبحث الثالث

رأي ابن عادل في صفة الكلام ومسألة خلق القران

يرى الامام ابن عادل ان الله تعالى متكلم بكلام ، وان كلامه صفة ذاتية له كعلمه ، وقدرته ، ونحو ذلك من صفات ذاته ، وهذه الصفات كلها بما فيها صفة الكلام قديمة ازلية ، ولو عرى في صفة الكلام صحة وصفه بها ، فلا بد ان يكون موصوفا بضده ، وهو الخرس والسكوت ، وذلك من دلائل الحدوث ، فلا يجوز وصف القديم به اتفاقا ، فوجب ان يكون متكلما له صفة الكلام .

علمه ويكشف ما شاء من علمه ، لمن شاء من خلقه ، كما ان علمه صفة في الواقع ان كلام الله تعالى صفة ذاتية له ،تتعلق بكل ما في ذاتيه له ، تتعلق بكل شيء تعليق اكشاف وادراك من غير سبق خفاء . فالكلام اذن كمال وجودي محض ، ولو لم يكن الخالق متصفا به لكان ناقصا لفقدة في الازل له ، ولكان غيره من الموجودات كالانسان اكمل منه وهو محال ، لما ثبت ان الباري عز وجل اعلى الموجودات واكملها فلا بد اذن ان يكون لله تعالى كلام ، كما ان للأنسان كلاما ، مع العلم بتتريه كلام الله عن مشابهة كلام الناس .

واكثر ابن عادل الحنبلي من الرد على المعتزلة في مسألة خلق القران الكريم ، ودحض شبههم ، يقول في الاية الكريمة : ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾[1] :(احتج القائلون بخلق القران الكريم بقوله :(كتاب انزل اليك) ،

[1] سورة الاعراف ،الاية :٢

فوصف بكونه منزلا والانزال يقتضي الانتقال من حال الى حال ، وذلك لا يليق بالقديم فدل على انه محدث .

والجواب ان الموصوف بالانزال والتنزيل على سبيل المجاز هو هذه الحروف ولا نزاع في كونها محدثة مخلوقة

فان قيل :هب ان المراد منه الحروف إلا أن الحروف اعراض غير باقية بدليل انها متوالية وكونها متوالية يشعر بعدم بقائها ، واذا كان ذلك فالعرض الذي لا يبقى زمانين كيف يعقل وصفه بالنزول

فالجواب : انه سبحانه وتعالى احدث هذه الرقوم والنقوش في اللوح المحفوظ ثم ان الملك يطالع تلك النقوش ،

وينزل من السماء الى ألارض ويعلم محمدا –صلوات الله وسلامه عليه– تلك الحروف والكلمات ، فكان المراد بكون تلك الحروف نازلة هو أن مبلغها نزل من السماء الى الارض [1].

ومما يتعلق بالاختلاف في مسألة (خلق القران) ، الاختلاف في مسألة (نداء الله للرسل) ، وقد بين ابن عادل الحنبلي إختلاف اهل السنة فيها ، ورأي المعتزلة فيها ، ويقول في الاية الكريمة :﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ [2]

: (واختلف في النداء الذي سمعه موسى ــ عليه السلام ــ من الله تعالى ، فقيل : هو الكلام القديم ، فكما أن ذاته تعالى لاتشبه سائر الذوات مع ان الدليل دل على انها معلومة ومرتبة ، فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحروف والصوت مع انه مسموع ،وقيل : كان نداء من جنس الحروف والاصوات . وقالت المعتزلة :

[1] اللباب : ٩/٥ـ٦

[2] سورة الشعراء ، الاية : ١٠

كان ذلك النداء حروفا واصواتا علم به موسى من قبل الله تعالى فصار معجزاً ، علم به موسى ان الله تعالى مخاطب له فلم يحتج مع ذلك الى واسطة) [1].

واستدل الامام ابن عادل بالدليل نفسه الذي ساقه لنا الامام الأشعري على قدم كلام الله عندما استند الى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [2] فلو كان حادثا ، لافتقر احداثه الى ان يقول له: كن فيكون ، وذلك يوجب التسلسل ، وهو محال ، فثبت ان كلام الله قديم ، وقد اعترض الامام الرازي على هذا الاستدلال حيث قال : هذا الدليل عندي ليس بالقوي من وجوه :

احدها : أن كلمة "اذا " لا تفيد التكرار ، لان الرجل اذا قال لامراته : اذا دخلت الدار فأنت طالق ، فدخلت الدار مرة واحدة طلقت واحدة ، ولو دخلت الدار ثانيا لم تطلق ثانيا ، فعلمنا أن ذلك لا يفيد التكرار ، واذا كان كذلك ثبت انه لا يلزم من كل ما يحدثه الله تعالى ان يقول له كن فيكون فلم يلزم التسلسل[3].

وثانيها : ان هذا الدليل ان صح ، لزم القول بقدم لفظ " كن " وهذا معلوم البطلان بالضرورة ، لان لفظة " كن " مركبة من الكاف والنون ،وعند حصول الكاف لم تكن النون حاضرة ، وعند مجيء النون تفوت الكاف ، وهذا يدل على ان لفظة "كن " يمتنع كونها قديمة ، وانما الذي يدعى اصحابنا قدمه

---

١ اللباب ٨/١٥ .
٢ سورة النحل ، الاية :٤٠.
٣ اللباب ٥٨/١٢

صفة (مغايرة) للفظ : "كن " فالذي تدل عليه الاية لايقول به أصحابنا ، والذي يقولون به لاتدل عليه الاية ، فسقط التمسك به .

ثالثها : ان الرجل اذا قال : ان فلانا لا يقدم على قول ، ولا على فعل ، الا ويستعين فيه بالله كان عاقلا ، لانا نقول ان استعانته بالله فعل من أفعاله ، فيلزم ان تكون كل استعانة ، مسبوقة باستعانة أخرى الى غير نهاية ، وهذا كلام باطل بحسب العرف ، فكذلك ما قالوه .

ورابعها : أن هذه الاية مشعرة بحدوث الكلام من وجوه :

الاول : أن قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يقتضي كون القول واقعا بالارادة ، فيكون محدثا .

الثاني : أنه على القول بكلمة " اذا " وهي انما تدخل للاستقبال

الثالث : أن قوله تعالى ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ لا خلاف أن ذلك ينبئ عن الاستقبال .

الرابع : أن قوله ((كن فيكون))كلمة مقدمة على حدوث الكون بزمان واحد ، والمتقدم على المحدث بزمان واحد ، يجب ان يكون محدثا .

الخامس :أنه معارض لقوله تعالى :﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [1] ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [2] و﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [3] و ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ [4] و﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [5] فان قيل : فهب أن هذه الاية لا تدل على قدم الكلام لكنكم ذكرتم أنها تدل على حدوث الكلام ، فما الجواب عنه ؟

قلنا : نصرف هذه الدلائل الى الكلام المسموع الذي هو مركب من الحروف والأصوات ، ونحن نقول بكونه محدثا [6] .

---

١ سورة الاحزاب ، الاية :٣٧

٢ سورة الاحزاب ، الاية : ٣٨

٣ سورة الزمر ، الاية :٢٣

٤ سورة الطور ، الاية :٣٤

٥ سورة الاحقاف ، الاية :١٢

٦ ينظر : اللباب : ١٢/ ٥٨ ، تفسير الرازي : ٢٧/٢٠ .